الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر - باتنة
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

د/نادية وزناجي
أستاذة التفسير وعلوم القرآن

و

رئيس قسم أصول الدين

ملامح التفسير الموضوعي في تفسير
-الشيخ عبد الحميد بن باديس-

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً{70} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً{71}**﴾**الأحزاب/70-71.**

أما بعد:

فإن القرآن الكريم حدث خارق للعالم ومعجزة معنوية أبدية أنزله الله على سيد الخلق محمد -صلى الله عليه وسلم- منذ أربعة عشرة قرنا، أنزله ليصلح به الأرض، وليدل أهلها المستخلفين عليها من بني آدم على الطريق الواصلة بالله، ويجدد ما رثّ من علائقهم به تعالى بعد أن ضلوا طريق الصواب، وأخلدوا إلى الأرض وعاثوا فيها فسادا أي فساد.

أقول: القرآن الكريم هو كلام رب العالمين الذي أودع فيه هدايات متميزة مطلقة الصواب صالحة للإنسانية صلاحا مطلقا يشمل كل زمان ومكان.

يقول الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1)-رحمه الله-: «... وما أشدّ شبه الإنسانية اليوم بالإنسانية قبيل نزول القرآن في جفاف العواطف وضراوة الغرائز وتحكم الأهواء والتباس السبل وتحكيم القوة وتغوّل الوثنية المالية... وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر، فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان، إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته، وذلك النمط السامي من الهمم

التي نشرته وعممته، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولته بالتطبيق العملي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم»(2).

وتفسير القرآن تفهيم لمعانيه وأحكامه وحكمه وآدابه ومواعظه، والتفهيم تابع للفهم، فمن أحسن فهمه أحسن تفهيمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهيمه، وإن كتب فيه المجلدات، وأملي فيه ألوف المجالس.

«ولا شك أن علم التفسير من أشرف العلوم وأكرمها لتعلقه ببيان معاني القرآن وتجلية حقائقه، وبيان حججه وتوضيح براهينه في العقيدة والشريعة والمنهج والسلوك وفيما يجدُّ من قضايا تحتاج الأمة إلى بيان موقف القرآن منها، حيث يغوص الباحث في أعماق القرآن ويستخرج موقفه من هذه القضية التي يعالجها»(3).

وعليه عُرّف علم التفسير تعريفات عديدة يلتقي أغلبها في: أنه«علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد –صلى الله عليه وسلم– وبيان معانيه، والكشف عن أحكامه وإزالة الإشكال والغموض عن آياته بقدر الطاقة البشرية»(4).

وقد كانت جهود المصطفى عليه الصلاة والسلام رائدة في التفسير، لأنها كانت تطبيقات عملية للقرآن الكريم، ثم تطورت بعد ذلك في كل أصقاع الأرض تبعا للفتوحات. ولكنها كانت شفاهية، وقد سادت هذه الطريقة قرونا من الزمان، لكن بعد انتشار أسباب الحضارة من قراءة وكتابة ظهرت عناية العلماء بالتفسير المكتوب، ونشأت التفاسير المكتوبة التي اتخذت من التفاسير الشفاهية مهدا لها، لارتباطها بعلم الرواية.

«أما فهم القرآن الكريم [بصفة عامة]– فيتوقف –بعد القريحة الصافية والذهن النير– على التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن الشارحة لأغراضه بالقول والعمل، والاطلاع الواسع على مفهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة، ثم على التأمل في سنن الله في الكائنات»(5).

وللمفسرين من عهد التدوين إلى الآن أساليب مختلفة في كتابة التفسير وطرائقُ متنوعة في فهم القرآن: أما الأساليب فقلما تختلف إلا ببعد العصور حين تختلف الأساليب الأدبية، فتنحط أو تعلو، فيسري التطور منها على الأساليب العلمية – أما الطرائق فإنها تختلف باختلاف الاختصاص عند المفسرين والعلوم التي غلبت عليهم وعرفوا بها.

ومن ثم اختلفت التفاسير المكتوبة، لأن القدماء والمحدثون حكّموا في القرآن نحلهم ومذاهبهم وصناعتهم الغالبة عليهم، فأضاعوا هديه وبلاغه، وأبعدوا الأمة عنه وصرفوها عن حكمه وأسراره، أما المفسرون الذين يصدق عليهم هذا الوصف فهم الذين يشرحون فقه القرآن، ويستثيرون أسراره وحِكَمه معتمدين على القرآن نفسه وعلى السنة وعلى البيان العربي.

يقول العلامة البشير الإبراهيمي:«وكان خمود وكان ركود، وضرب التقليد بجرانه فقضى على ذكاء الأذكياء، وفهم الفهماء إلى أن أذن الله للعقل الإسلامي أن ينفلت من عقال التقليد ويستقل في الفهم، وللنهضة العلمية الإسلامية أن يتبلج فجرها، ويعم نورها، فكانت إرهاصات التجديد لهذا العلم مرتبطة ارتباطا وثيقا بحركات الإصلاح(6).

وكانت سمة العصر الحديث حركة التجديد في مدرسة المنار التي وضع أسسها السيد جمال الدين الأفغاني(7) وبعده تلميذه الشيخ محمد عبده(8). ثم بعده تلميذه محمد رشيد رضا (9). وانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى الشيخ العلامة المصلح منشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر عبد الحميد بن باديس.

وقد شاء الله أن يَعْبُرَ التفسير الشفاهي الهدائي الإصلاحي إلى قلوب المتلقين وعقولهم عبْر التفسير الموضوعي، كما عبَر إليهم عن طريق التفسير التحليلي، وهي النتيجة الأساسية التي توصَّلتْ إليها أطروحة دكتوراه في الجزائر الموسومة بــ" **التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث**"(10)، مما يؤكد العلاقة المتينة بين التفسير الشفاهي والتفسير الموضوعي. وتجسيدا لهذه النتيجة ووقوفا عند تطبيقات الشيخ لمنهج التفسير الموضوعي بما حَوَتْ من ملامح هذا المنهج المستحدث، وهو المصلح المفسر –الذي اتخذ من تفسير كتاب الله وسيلة لإصلاح الفرد والمجتمع– فما من شك أنه وظّف التفسير الموضوعي للإصلاح، لمّا رأى أن له قدرة على الإصلاح والتغيير.

قبل الولوج إلى هذه الدراسة أرى من الأهمية بمكان تقديم لمحة موجزة عن حياة الشيخ عبد الحميد بن باديس، مسيرته مع تفسير كتاب الله غرضه منه ومنهجه فيه.

أولا: ترجمة المفسر عبد الحميد بن باديس –رحمه الله–

1)اسمه ونسبه:

هو عبد الحميد بن محمد بن مكي بن باديس الصنهاجي، وينتهي نسبه إلى المعز بن باديس مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى التي خلَفَت الأغالبة على مملكة القيروان(11).

2) مولــــــده:

ولد عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة يوم الأربعاء 10 ربيع الثاني 1308هــ/ الموافق لـــ 1889/12/04م(12).

ووالده: محمد مصطفى بن مكي بن باديس، كان صاحب مكانة مرموقة وشهرة واسعة، والموجه الأول له إلى التعليم الديني.

وأمــــه: السيدة زهيرة بنت علي الأكحل بن جلول، تنتمي إلى أسرة شريفة معروفة بالمجد والدين، وقد كان لها دور مهم في تربية عبد الحميد وتنشئته تنشئة دينية، وتشجيعه على طلب العلم.

3) نشأته العلمية وأعماله:

- حفظ القرآن على الشيخ المداسي(13)، ولما يبلغ الثالثة عشر من عمره.
- أخذ مبادئ العلوم الشرعية والعربية على الشيخ حمدان الونيسي(14).

- سافر إلى جامع الزيتونة بتونس، فتتلمذ على خيرة علمائه كالشيخ محمد النّخلي(15)، والشيخ الطاهر بن عاشور(16) وغيرهما، وتخرج منه بشهادة التطويع العالمية عام 1911م.
- في عام 1912م عاد من تونس، ليلقي بعض الدروس في «الجامع الكبير» بقسنطينة من كتاب «الشفا» للقاضي عياض رحمه الله، لكنه سرعان ما منع.
- في عام 1913م غادر قسنطينة متوجها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.
- وفي المدينة المنورة التقي بأستاذه حمدان لونيسي، كما تعرف على الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.
- رجع ابن باديس إلى قسنطينة ليباشر التعليم في «الجامع الأخضر» بسعي من والده لدى الحكومة.
- وفي الجامع الأخضر، ختم تفسير القرآن تدريسا في ربع قرن، كما أتم شرح كتاب الموطأ "لإمام دار الهجرة مالك أنس –رحمه الله–تدريسا أيضا.
- أصدر بعد تأسيس «المطبعة الجزائرية الإسلامية–عدة جرائد من أشهرها "المنتقد" و "الشهاب"و"السنة"و "الشريعة"و"الصراط"و"البصائر"، لتبليغ الدعوة الإصلاحية.
- وفي سنة 1931، تم تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» فانتخب الشيخ عبد الحميد رئيسا لها.
- أسس بمؤازرة إخوانه المصلحين المساجد والمدارس الحرة، والنوادي العلمية في شتى أنحاء القطر الجزائري.

4) شيوخـــــه:

من أشهرهم بقسنطينة: الشيخ حمدان الونيسي، وبتونس : العلامة محمد النخلي، والشيخ الطاهر بن عاشور، ومحمد بن القاضي... وغيرهم من علماء الزيتونة.

وبالمدينة النبوية: الشيخ أحمد الهندي(17)، وبمصر: شيخاه بالإجازة: العلامة محمد بخيت المطيعي، والشيخ أبو الفضل الجيزاوي.

5) تلاميذه: وهم كثيرون، من أبرزهم: العلامة الشيخ مبارك الميلي مؤلف « رسالة الشرك ومظاهره» و"تاريخ الجزائر"، والشيخ الفضيل الورتلاني، والهادي السنوسي وغيرهم.

6) ثناء أهل العلم والفضل عليه(18):

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فيه: «باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية ومنشأ مجلة الشهاب مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحيّة، ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية، في مجالس انتظمت

ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقن مباديها، عالم البيان وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس».

قال الشيخ مبارك الميلي:«الأستاذ العظيم والمرشد الحكيم، عدتنا العلمية وعمدتنا الإصلاحية».

قال الشيخ الطيب العقبي:«المصلح الفذ والعلامة الذي ما أنجبت الجزائر منذ أحقاب –مثله إلا قليلا».

7) عقيدته: كان العلامة ابن باديس سلفيا، متمسكا بالكتاب الكريم، والسنة الصحيحة، معتدا بفهم السلف الصالح لهما، وقد قرر ذلك في أكثر من مناسبة، منها ما حرّره في خاتمة «رسالة جواب سؤال عن سوء مقال» التي نشرت باعتنائنا. حين قال رحمه الله:«.. الواجب على كل مسلم في كل مكان وزمان أن يعتقد عقدا يتشربه قلبه، وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتتبني عليه أعماله، أن دين الله تعالى من عقائد الإيمان وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان، إنما هو في القرآن والسنة الصحيحة وعمل السلف الصالح، من الصحابة والتابعين، وأتباع التابعين، وأن كل ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول، قولا كان أو عملا أو عقدا أو حالا– فإنه باطل من أصله، مردود على صاحبه، كائنا من كان في كل زمان ومكان... (19).

8) آثـــاره:

لم يصل إلينا منها سوى:

1-"تفسير ابن باديس" أو "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

2- "من هدي النبوة" أو "مجالس التذكير من كلام البشير النذير –صلى الله عليه وسلم–".

3-"رجال السلف ونساؤه".

4- "القصص الهادف".

5-"العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية".

6-"مبادئ الأصول".

7-"رسالة جواب سؤال عن سوء مقال".

8-"العواصم من القواصم لأبي بكر بن العرب المالكي : تحقيق وتقديم".

9- "تحفة المستهدي في إثبات خروج المهدي"، ويقول المحقق": وقفت على الورقة الأولى من هذه الرسالة المخطوطة في مكتبة الشيخ نعيم النعيمي، –رحمه الله تعالى–.

10-"التأفين لمنكر التأبين"، يقول المحقق:«وقفت على نسختين خطيتين منها، وعن أخينا الدكتور جمال عزون نسخة ثالثة، وهو يعمل على تحقيقها، وفقه الله وأعانه وسدد خطاه، كما جمعت مقالاته في "الشهاب" و"البصائر" وغيرهما ونشرت ضمن آثاره غير مرة.

9) وفاتــــــه:

توفي الشيخ عبد الحميد بن باديس –بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال– مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول سنة 1359هـ الموافق لـ16//1940/04م ودفن في روضة أسرته بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة، –رحمه الله تعالى–رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته(20).

هذه لمحة موجزة عن حياة الشيخ بدأنا بها من باب التقليد العلمي ومن باب الإشادة بالفترة التاريخية التي طبق فيها المفسر التفسير الموضوعي في الثلاثينيات قبل التنظير له في أواخر الثمانينيات من هذا القرن.

ثانيا- مسيرته مع التفسير وغرضه منه:

إذا كان الشيخ ابن باديس قد تصدى لتفسير كتاب الله درسا وجعله وسيلته وعدته الأساسية في الإصلاح متبعا ترتيبه التوقيفي من أول الفاتحة إلى آخر الناس وذاك ما عرف بمنهج التفسير التحليلي، فقد فسره تفسيرا موضوعيا في خمسة مواضيع: أربعة منها في التفسير الموضوعي التجميعي والخامس في التفسير الموضوعي السوري.

ويبدو أن له هدفا إصلاحيا أيضا أراد تحقيقه بهذه الطريقة الموضوعية في التفسير مما يبين العلاقة المتينة والوطيدة بين التفسير الشفاهي الهدائي الإصلاحي والتفسير الموضوعي وامكانية توظيف التفسير الموضوعي للإصلاح، حتى وإن كان المفسر لا يدري أنه يمارس منهجا جديدا في التفسير.

وربما كان العامل المشترك في جمعه بين المنهج التحليلي الشفاهي والموضوعي الشفاهي هو إحكام الصلة بين النص والواقع. وهو الهدف الأصيل الذي دعا إلى ظهور التفسير الموضوعي في أواخر الثمانينيات.

وهكذا رغم مشاغل الأستاذ العلامة ابن باديس التربوية والإصلاحية والسياسية، فإنه كان يخصص جزءا من وقته للقرآن الكريم أساس دعوته وحركته الإصلاحية يدرسه للناس "بالجامع الأخضر بقسنطينة" وفي التنويه بهذا العمل الجبار، قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي معظما هذا العمل مشيدا به واصفا إياه بالمفخرة الجزائرية :«لقد أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير كتاب الله درسا على الطريقة السلفية، وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر، وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درسا ولما عاق حَوَاريه الإمام محمد رشيد رضا عن إتمامه كتابة»(21).

هذا وفي معرض وصف البشير الإبراهيمي لحفل ختم الإمام تفسيره أشار إلى الخسارة الكبيرة التي كدرت ذلك الصفو فقال:«وإن كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر الجزائري، فمن دواعي الأسف أنه لم يُنتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدها بالكتابة، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة ذخرا لا يقوّم بمال، ولاضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية» (22). ويضيف الإبراهيمي متأسفا

ومتحسرا:«... ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" علم أي علم ضاع وأي كنز غطى عليه الإهمال[ويمضي قائلا]؛ ولأن الألطاف الإلهية ألهمت المفسر –رحمه الله– أن يَنْتَقِيَ عينات من تلك النفائس يكتبها كافتتاحيات لمجلة الشهاب، واختار لها عنوانا موحيا بالدلالات ومفعما بالرموز وهو "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"» (23).

هذا عن مسيرة الشيخ مع تفسير كتاب الله أما غرضه فكان غرضا هدائيا إصلاحيا بالدرجة الأولى، أي أن هدفه من هذا التفسير جعله وسيلة لتحقيق غاية سامية هي الإصلاح؛ إذ كان يَعُدُّ نفسه خادما للقرآن، وقد أشار إلى ذلك عندما افتتح خطابه في حفل الختم:«... أنتم ضيوف القرآن... وهذا اليوم يوم القرآن... وما أنا إلا خادم القرآن»(24).

ولقد كان ابن باديس متأثرا بالطريقة الهدائية في التفسير التي انتهجتها مدرسة المنار، إذ استهدف في تفسيره تكوين أجيال مؤمنة متخلقة بأخلاق القرآن، لأنه كان يؤمن بأن القرآن الذي كوّن رجالا في السلف لا يكثر عليه أن يكوّن اليوم رجالا لو تدبره الناس وأحسنوا فهمه.

قال –رحمه الله– « فإننا نربي –والحمد لله– تلاميذنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كسلفهم، وعلى هؤلاء الرجال تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها»(25).

فهذا النص يبين لنا بوضوح الأهداف السامية والغايات النبيلة التي رام ابن باديس تحقيقها من خلال درس التفسير، وهي محاولة بعث المجتمع الإسلامي الذي عرف مرحلة الركود الحضاري منذ أزمنة بعيدة، عن طريق بناء الفرد المسلم بناء قرآنيا يكسبه الفعالية الحضارية ويخرجه من مرحلة الذهول الحضاري التي يعيشها، وفي الإطار نفسه قال –رحمه الله–: «لا نجاة لنا من هذا التِّيهِ الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه»(26).

ومن يطالع تلك المقالات النفيسة في تفسير "مجالس التذكير" يدرك صدق ما قال الإمام، ويلاحظ كيف جلّى الهداية القرآنية في أسمى معانيها، وَوَاضِح صورها، وكيف ارتقى بدرس التفسير وخلصه من مرحلة الركود التي كان عليها، أما عدم التدوين الذي رأى بعضهم أنه تقصير، فقد أجاب عن ذلك –رحمه الله– بقوله: «شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب»(27).

ثالثا– منهجه في التفسير(28).

أما منهجه في التفسير فنلخصه في هذه النقاط الأساسية:

- البدء بالتفسير التقليدي (المناسبة/ سبب النزول، شرح الألفاظ والتراكيب، المعنى العام).
- الانتقال إلى إزالة الفجوة بين المسلمين والمهمة العلمية لحركية القرآن.
- تربية المسلم تربية قرآنية إسلامية بتوظيف النص الفاعل في العقل السائد.
- الاستعانة كثيرا بتفسير القرآن بالقرآن مما يؤكد التزامه بالوحدة الموضوعية.

- تجاوزه عصر الخلاف المذهبي والكلامي واللغوي بتبنيه عدم الخوض في هذه الخلافيات
- مراعاة مقتضى الحال.
- تقسيم النص تقسيما نموذجيا يفصل فيه بين الأفكار بعناوين فرعية مختصرة محكمة تؤكد هدفه من التفسير.
- ظهور النزعة الاستقلالية عنده.
- الابتعاد عن الإسرائيليات.
- الاعتماد على ثنائية محورين: التفسير بالمأثور والتفسير بالمعقول.
- شرح الآيات بأسلوب مبسط وسهل يبين هداية القرآن وحكمة تشريعه في معالجة أمراض المجتمع.

رابعا- تجارب ابن باديس في التفسير وملامح التفسير الموضوعي فيه:

نظرا لكثرة تعاملي مع تفسير "مجالس التذكير"، وهو تراث قليل بالنسبة إلى كثير ضاع بسبب تهاون طلابه، وجدت الشيخ قد نوع في طريقة التفسير تنويعا كثيرا. وقفت فيه على قواعد المنهج التحليلي الشفاهي من خلال أطروحة الماجستير الموسومة بـ"منهج التفسير عند الشيخين عبد الحميد بن باديس وإبراهيم بن عمر بيوض» كما وقفت أيضا على ملامح التفسير الموضوعي من خلال بعض الموضوعات التي افتتح بها المصنَّف وختم بها أيضا بعد جمع تراث الشيخ في التفسير على يد بعض طلبته والذي كان مفرقا في أعداد مجلة "الشهاب".

وباستقرائي لهذه المواضيع لاحظت أن الشيخ كان قد تناواها تناولها وفق منهج مغاير للمألوف المطّرد في بقية تفسيره.

ويمكن تصنيف هذه المواضيع كالآتي:

1-**موضوع "الذكر"**: وهو الموضوع الأول في هذا المصنف من صميم التفسير الموضوعي، وقد نشره الشيخ في مجلة "الشهاب"، مارس سنة 1929م، ونستنتج من ذلك أن الشيخ قد اكتشف المنهج في وقت مبكر جدا بالنسبة لجهود المعاصرين وأن هذا الجهد كان يحتوي على كامل خطوات منهج التفسير الموضوعي التجميعي التي ذكرها الدكتور مصطفى مسلم(29).

2-**موضوع "التذكير"**: وقد نشره الشيخ في شهر فيفري من سنة 1929م، أي قبل الأول بشهر، لكن الذين جمعوا النصوص التفسيرية لم يراعوا أهمية الترتيب مع الأسف، إلا ما قام به المحقق أبو عبد الرحمان محمود في الطبعة الأولى، سنة 1430هـ/2004م من مراعاة هذا الترتيب الزمني. فافتتح المصنف بموضوع "التذكير" وأردفه بموضوع "الذكر".

3-**موضوع "أفضل الأذكار":** وقد طبق عليه المنهج السابق بخطواته، ونشره في ماي 1929م.

4-**موضوع "العرب في القرآن"** : ونشره الشيخ في فيفري 1939، أي بعد عشر سنوات تقريبا من نشر آخر موضوع، وهو موضوع يغني عنوانه عن أي بيان.

5-**تفسيره للمعوذتين:** في آخر درس للتفسير ألقاه يوم ختمه له بقسنطينة سنة 1939.

خامسا- جوهر ملامح التفسير الموضوعي عند ابن باديس

بعد تصنيف هذه التجارب الخمس في تفسير العلامة المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس وقبل إفراد بعضها بالدراسة التطبيقية النموذجية، يمكننا التساؤل: أكان هذا التصور واضحا في زمان الشيخ ابن باديس ليمارسه؟ أم أن الشيخ كان يمارسه بتلقائية دون أن يدري أنه يمارس منهجا جديدا في التفسير له قواعده وأصوله التي تميزه عن المناهج الأخرى؟ وإن كان قد مارسه، أمارس منحييه التجميعي والكشفي معا؟ أم أنه مارس أحدهما فقط؟ أم أن الشيخ لم يُعْنَ بذلك تماما وإننا نريد أن نحمله ما لم يُحَمِّلْ نفسه؟ (30).

وللإجابة عن هذه التساؤلات، ينبغي قراءة أثر الشيخ في مجال التفسير بإمعان بعيدا عن الأفكار المسبقة، والانتماءات العمياء التي تجعل الباحثين يقوّلون العلماء ما لم يقولوا، وينطقوهم بما لم ينطقهم به زمانهم.

نقول ذلك لأن ابن باديس كان يدرك تمام الإدراك **دور البعد الزماني** في تطوير مناهج التفسير. وهو ما قرره قائلا:«... بالنظر في هذه الآيات نصل، بتيسير عقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة وأسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها، وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق مضت عليه أزمان وهو يعدها من المحال، ويجتبي منها فوائد ما كانت تخطر له في أحقابه الماضية على بال»(31). وهو بهذا يقرر فاعلية عاملين أساسيين في المنهج:

أ -**عامل العقل:** وهو العامل الذي يعبر به الإنسان من المجهول إلى المعلوم عن طريق كشف الأسرار الغريبة يقول الشيخ :« بالنظر في هذه الآيات نصل بتيسير عقولنا إلى إدراك بدائع عجيبة وأسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها ونعتبر بها وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق مضت عليه أزمان وهو يعدها من المحال»(32).

ب **عامل الزمان:** وهو العامل الذي يغذي باستمرار عقل الإنسان ومعارفه بالجديد الذي يضيف إلى المنهج لبِنَات، تعين على كشف ما لم يكن يخطر ببال العالم النحرير في فترة من فترات تاريخ الفكر الإنساني فيقول:«إن القرآن كتاب الدهر ومعجزاته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن»(33).

وأعني بذلك أن الشيخ توفي قبل أن يعرف التفسير الموضوعي طريقه بالصورة المعاصرة، ذلك لأن هذا المنهج وضحت بداياته في مطلع الثمانينيات من هذا القرن، والشيخ توفي سنة 1940م. وإن كنت لا أستبعد أن يكون قد تعرف على طريقة ابن القيم الجوزية (751هـ) والطريقة التي اكتشفها الشاطبي (790هـ)، ودعا إليها قبل. وإذا كان الشيخ قد تأثر بمناهج من سبقوه، وهو رجل سلفي واع بمنهج السلف، من المحدّثين والمفسرين على حد سواء، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أنه سار على طريقهم في التفسير، ولهذا السبب لا يمكننا تصنيف ما أنجزه في التفسير منتميا لإحدى الطريقتين، وإنما كل ما يمكننا قوله :«هو أن للشيخ ابن باديس في -رحلاته التي دامت خمسا وعشرين سنة (1913-1939م)- مع تفسير كتاب الله تجارب مختلفة،

جاد بها الزمان، درى الشيخ باختلافها عن بعضها أم لم يدر، لأن هذا من طبائع الجهود البشرية حين يمتد بها الزمان هذا الامتداد الذي بلغ ربع قرن»(34).

وللوقوف بدقة على جوهر ملامح التفسير الموضوعي بمنحييه التجميعي والسوري في مسيرته مع تفسير كتاب الله اخترنا نموذجين للمنحى التجميعي ونموذجا للمنحنى السوري.

1- ملامح منهج التفسير الموضوعي التجميعي:

وكما قلنا سنتناوله من خلال نموذجين اثنين هما:

- موضوع "الذكر" وهو أول موضوع افتتح به تفسير "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

- موضوع "العرب في القرآن" وهو آخر موضوع فيه. وكأن "تفسير مجالس التذكير" أوله وآخره موضوعين في التفسير الموضوعي" بينهما مقالات متنوعة من آيات متفرقات في التفسير التحليلي الشفاهي الهدائي الإصلاحي.

قبل أن نتطرق إلى تطبيق الشيخ للمنهج الموضوعي التجميعي في مسيرته الطويلة والمتنوعة في أثناء تفسير كتاب الله وقبل التنظير لهذا المنهج المستحدث، نورد الخطوات المرحلية للسير مع الموضوع القرآني كما ذكرها الدكتور مصطفى مسلم(35).:

1 -اختيار عنوان للموضوع القرآني مجال البحث، بعد تحديد معالم حدوده، ومعرفة أبعاده في الآيات.
2 -جمع الآيات التي تبحث الموضوع، أو تشير إلى جانب من جوانبه.
3 -ترتيب هذه الآيات حسب زمن النزول.
4 -دراسة تفسير هذه الآيات دراسة وافية، من كتب التفسير التحليلي.
5 -تسجيل العناصر الأساسية للموضوع من خلال الآيات.
6 -تفسير الآيات إجماليا، وذكر ما ورد في تفسيرها من أحاديث صحيحة، وأقوال للصحابة والتابعين.
7 -وضع مخطط للبحث، وفق توجيهات البحث العلمي بتحديد منهجه في البحث، وطريقته فيه، وتفصيل أبوابه وفصوله ومباحثه.
8 -تحقيق أهداف الباحث من بحثه، بإبراز حقائق القرآن وتوجيهاته، وعرضها بأسلوب عذب مشرق.

أ) موضوع الذكـــــر:

استهل المفسر هذا الموضوع بتمهيد جاء فيه «الذكر أصل من أصول الدين العظيمة، أو هو الدين كله، ولذا امتلأ القرآن العظيم بالآيات المشتملة عليه، فالمسلم إذا شديد الحاجة إلى معرفته وفقهه، وطريقة العمل به، وقد تعرضنا لبيان ذلك فيما سيأتي، وجعلنا الكلام في قسمين وختمناه بالتحذير مما خرج عن سوء القصد بغلو أو تقصير ليكون الواقف عليه على بصيرة مما يأتي منه أو يدع»(36).

فلو تأملنا هذا التمهيد لوجدناه يشتمل على إشارات لخطوات التفسير الموضوعي، لأنه:

- عرّف الموضوع وحدّده.
- وأشار إلى جمع الآيات التي تشكل بناءه.
- ثم بين الحاجة إليه ونبه على خطورة الخلط بين الموضوعات.
- ثم كشف عن الغرض من الموضوع وهو تكوين بصيرة محددة حوله.

وبعد تتبعنا للموضوع وجدناه يبدأ بالحديث عن "التضاد" الواقع بين موضوع الذكر وموضوع النسيان، وما يرادفه من ألفاظ كغفلة القلب وغطاء العين والعجز عن السمع، وكلها ألفاظ تحمل معاني عميقة توصل إليها بالاعتماد على القراءة الواعية للآيات المتعلقة بالموضوع مثل: قول الله تعالى: ﴿**وَمَا أنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾ **الكهف**/63،﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**﴾ **الكهف/28** ﴿**والَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً{101}**﴾ **الكهف/101.** وقوله الله تعالى :﴿ **قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً{10} رَّسُولاً** ﴾ **الطلاق /10-11** و﴿**وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ** ﴾**الأنبياء/ 50.** فهذه الآيات وغيرها (37)، جمعها الشيخ بعد أن استخرجها من مظانها لتشكل عناصر موضوع الذكر، مما ساعده على أن يقسّم الموضوع إلى الشكل التالي:

- **القســـم العلمي:**

1- دلالة الكلمة.

2- أقسام الذكر: - ذكر القلب وهو على ثلاثة ضروب: التفكير+ العقد+الاستحضار.

- ذكر اللسان وهو ضربان: ذكر الله ثناء+ ذكره دعوة.
- ذكر الجوارح وهو ضرب واحد: استعمالها في الطاعات.

- **القسم العملي:**

وقد أسس الشيخ العمل فيه على السنة، مما يبين ترابط الموضوع في ذهنه ترابطا وثيقا، يكشف عن إدراكه طبيعة العلاقة القائمة بين القرآن والسنة في تحديد أطراف الموضوع تحديدا غفل عنه بعض المعاصرين الذين يحذرون من استخدام السنة في التفسير الموضوعي حفاظا على وحدته القرآنية(38).

يقول الشيخ:«وكما تلقينا هذا الأمر وهذا الوعد ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾**البقرة/152.** عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كذلك علينا أن نتلقى عنه كيف كان يعمل به، فهو المبلغ عن الله تعالى بقوله وفعله والمبيِّن كذلك بهما»**(39)**.

-الربط بين القسمين (التحذيــر):

وفي هذا العنصر تأكيد على ضرورة الربط بين القسمين السابقين «إذ ربما شغل اللسان بالتعلم والعلم عن الأذكار المأثورة حتى يتركها الطالب جملة ويكون عنها من الغافلين، فيحرم من خير كثير وعلم غزير، وقد كان –صلى الله عليه وسلم– معلم الخلق وما كان يغفل عن تلك الأذكار»**(40)**.

هكذا نرى المفسر يقسم موضوع الذكر إلى عنصرين مهمين هما: القسم العلمي والقسم العملي ويختمه بخاتمة، كاشفا بعدها عن الغرض من الموضوع وهو تكوين بصيرة محددة حوله يقول: «... فليحذر المؤمن من هذا كلّه ومن مثله، وليتمسك بما كان عليه النبي –صلى الله عليه وسلم– من الإتيان بضروب الذكر الثلاثة كلها منزلا لها في منازلها، متعبدا لله تعالى بجميعها، والله الموفق، وبه المستعان»**(41)**.

فهذه الخطوات الثلاث الأساسية التي صرّح بها المفسر في التمهيد لهذا الموضوع قد طبقها فعليا وهي تقريبا ما وضعه المنظرون في خطوات منهج التفسير الموضوعي التجميعي. خاصة الخطوة الأخيرة والتي عبر عنها بقوله:«... تكوين بصيرة محددة حوله» التي يقابلها في خطوات المنظرين لهذا المنهج: "الخروج بنظرية قرآنية حول الموضوع أو نظرية قرآنية بصدده".

ب) موضوع العرب في القرآن:

جمع المفسر لهذا الموضوع ما يزيد عن عشرين آية هي التي شكلت عناصره الأساسية. وهذا الموضوع هو خطاب ارتجله الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» في اجتماعها العام بنادي «الترقي».

يقول المحقق أبو عبد الرحمان محمود:«وقد حافظنا على معانيه وعلى الكثير من ألفاظه، وهيهات هيهات لما نود من نقله للقراء بألفاظه وجمله، فإنه خطاب عظيم في موضوع خطير لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القرآن وغوصه على مغازيه البعيدة ونفاذه في معانيه العالية، وعلى كل فإننا نرجو أننا قدمنا الموضوع للقراء كامل المعاني وحسبنا هذا»**(42)**.

هذا ما سنقف عليه من خلال تقسيم هذا الموضوع كما ارتجله المفسر إلى عناصر محددة تبين بوضوح ملامح التفسير الموضوعي التجميعي فيه:

1-__مقدمــة:__ تناولت الدعوة إلى الاهتمام بتاريخ العرب ومدنهم ودولهم وخصائصهم قبل الإسلام، والبحث في سر اختيار الله لهم لتبليغ الرسالة.

2- سر نزول القرآن بلسانهم: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{3}**﴾**الزخرف/3**، وسر توسعته على سبعة أحرف.

3-بعث الرسول من أنفسهم:﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ﴾التوبة/128.

4- ذكر سر القومية: مستنبطا ذلك من قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{43} وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ{44}﴾الزخرف/43-44** فقال:« ويكمن في عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ليهيئهم لسياسة البشر والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف في نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا من سياسة البشر»[43].

5-مقارنة بين المقومات النفسية العربية والمقومات النفسية الإسرائيلية الذليلة:

ومن هذه المقارنة خرج بنتيجة هي: «أن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله، وأما بنو إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم» [44]. فالأمتان العربية والإسرائيلية -متمايزتان بالأثر، ومتمايزتان بحديث القرآن عنهما، وإذا تلمسنا الحكمة المقصودة من اختيار الله لبني إسرائيل مع أنهم غَيْرُ مستعدين للقيام بنهضة عالمية عامة، وجدنا تلك الحكمة في القرآن مجلوة في أبلغ بيان، في قول الله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{5} وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ{6}﴾القصص/ 5-6.**

6-**تحديد مكان الدعوة:**

وذلك ببيان لماذا كان منبع الرسالة مكة، ولماذا اختيرت في وسط الجزيرة بالضبط؟ والسر فيما يرى هو أن الوسط بعيد عن المؤثرات الخارجية في الطباع والألسنة. فأطراف الجزيرة لم تخل من لوثة في الطباع جاءت من الاختلاط بالأجنبي، فاليمن تأثرت بالحبشة والفرس، والعراق تأثرت بالطباع الفارسية، أما أهل مكة والمدينة فلم يتأثروا بأي لسان أو طبع.

7-**حظ العرب من القرآن:**

وفيه إشارات ذكية لتصحيح المنهج التاريخي مفادها أن التاريخ يجب أن لا ينظر من جهة واحدة بل من جهات متعددة، وفي العرب نواح تجتبى و نواح تجتنب، وجهات تذم وتقبح وجهات يُثنى عليها وتُمدح، وهذه هي طريقة القرآن بعينها فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية، ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل، وينوه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات، ولنذكر عادا التي كانت أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة، ذكرها القرآن، فذكرها بالقوة والصولة

وعزة الجانب، ونعى عليها الصفات الذميمة التي تنشأ عن القوة قال تعالى ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وقالوا من أشدُّ مِنَّا قوة أولَمْ يَرَوْا أنَّ الله الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قوَّةً** ﴾ **فصلت/15.**

8- يستحضر الآيات المتعلقة بعاد ويحللها:

كقول الله تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ{52}**﴾**هود/52**، وقوله تعالى: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ{128} وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ{129} وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ{130}**﴾ **الشعراء128-130**

لِيُبرز كل جوانب مَدَنِيّتها سواء ما يتعلق بجوانب السلب، أو ما يتعلق بالإيجاب ليصل إلى شهادة الله عليها في أنها ﴿**الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ{8}**﴾ **الفجر/8.** فهذا الوصف البليغ الذي تقرؤه في "سورة الفجر" صريح بألفاظه ومعانيه في أنه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها، فالعماد لا يكون إلا في القصور والأبنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم ومدنية هذا وصفها لا تشيدها إلا أمة لا نظير لها في القوة.

9- يضرب مثالا لمدنية عربية أخرى:

هي ثمود ويحلل الآيات المتعلقة بها، كقوله تعالى: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾**هود/61** وقوله تعالى: ﴿ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ{146} فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{147} وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ{148} وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ{149}** ﴾**الشعراء/146-149**، فالمغزى الذي سيقت له هذه الآية هو النفي عليهم، كيف يستعينون بنعم الله التي يسرها لهم على الكفر به، وإنذارهم أن الكفر وبمؤتيها سيكون سببا في زوالها.

10- يضرب مثالا بحضارة العرب في اليمن:

من خلال ذلك يبين ما وصلت إليه سبأ من «مدنية زاهرة مستكملة الأدوات» (*) لم يحطمها غير كفرهم ﴿**فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**﴾**سبأ /16** وقوله تعالى«**وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة**».

11- يتوقف عند نظام الشورى في مملكة سبأ:

قال تعالى على لسان سليمان عليه السلام ﴿**{إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ }**﴾**النمل23.** يتوقف الشيخ في هذه الآية عند نظام الشورى في مملكة سبأ ويقول مقترحا:« ولَعَلَّ كاتبا من كتابنا يتناول هذا البحث بحث "الانتخاب في الإسلام"، ولئن استرشد القرآن في هذا الباب ليرشدنه»(45).

بعد استيفاء الشيخ الحديث عن موضوع العرب في القرآن وإعادة تركيبه وبنائه بجمع آياته المتفرقات في طول القرآن كله يتأكد لنا نضج فكرة المنهج الموضوعي التجميعي في ذهنه. وقبل أن يختم بتصوره

المحدد حول الموضوع نراه يقترح موضوعا جديدا في التفسير الموضوعي التجميعي بوضوح حين قال:" ولعل كاتبا من كتابنا يتناول بحث الانتخاب في الإسلام ولئن استرشد القرآن في هذا الباب ليرشدنه...".

12-الخاتمة: «التصور المحدد حول الموضوع»:

كانت هذه الخاتمة بمثابة خلاصة تبين التصور العام لموضوع العرب في القرآن عنده وهو يقول:«هذه مدنيات ضخمة عبرت في هذه الأمة التي أهلها الله لحمل الرسالة الإلهية إلى العالم، وهذه بعض خصائص هذه الأمة التي هيأها الله للنهوض بالعالم، وإنقاذه من شرور الوثنية وبنياتها، ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها، وإن القومية العربية موضوع مترامي الأطراف، وليس من الممكن الإحاطة به في مثل هذا الخطاب، وحسبي أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التي هي خدمة للإسلام والقرآن وعليكم السلام(46).

وخلاصة القول:

إن الشيخ عبد الحميد بن باديس قد درس القرآن الكريم دراسة موضوعية مبكرة، وإنه كان قد استوعب المنهج استيعابا جيدا يتبين لمن يتتبع خطواته في كل الموضوعات جليا واضحا؛ فهو يبدأ تفسيره بتحديد الموضوع، ثم يقسمه إلى عناصر، ويحلل تلك العناصر في إطار الفكرة المهيمنة على الموضوع، جاعلا القرآن الكريم وحده مرشدا له في رسم المعالم الأساسية للموضوع، محللا فيها التصور العام لموضوع بحثه، هذا ما تعلق بالتفسير الموضوعي التجميعي، فهل فسر القرآن باعتبار الوحدة الموضوعية؟.

نعم لقد فسر المعوذتين تفسيرا يَنِمُّ عن إدراكه لخطوات منهج التفسير الموضوعي السوري وهذا ما سنقف عليه في هذه التجربة.

2- ملامح منهج التفسير الموضوعي السوري (الكشفي)(*):

قبل الوقوف على تطبيق الشيخ لخطوات المنهج السوري في تفسيره للمعوذتين(*) نورد خطوات هذا المنهج كما يراها الدكتور مصطفى مسلم فالخطوات التي سجلها هـــي: (47).

1-التقديم للسورة بتمهيد، يعرف فيه بأمور تتعلق بالسورة، من حيث أسباب نزولها، ومكيتها ومدنيتها، وغير ذلك.

2-محاولة التعرف على الهدف الأساسي للسورة، والمحور الذي تدور حوله.

3-تقسيم السورة الطويلة إلى مقاطع أو فقرات.

4- ربط هذه المقاطع بالأهداف الأساسية للسورة.

هذه الخطوات هي تقريبا الخطوات نفسها التي إلتزمها الشيخ عبد الحميد بن باديس في تفسيره للمعوذتين:

1-فأول ما بدأ به تفسيره تمهيد عرض فيه تسمية المعوذتين وفضلهما ثم سبب نزولهما والمناسبة بينهما، وهدفهما وسر الختم بهما.

فقال في التمهيد: « بُني هذا الكون الدنيوي على أن يقترن فيه الخير بالشر، وأن يتصلا وأن يشتبها، وأن يحيطا بالإنسان من جميع جهاته فتكون أعماله الكسبية في الحياة مكتنفة بهما، دائرة بينهما، موصوفة بأحدهما ولا بد؛ ذلك من قدر الله ومن سننه العامة في هذا العالم الإنساني... والإنسان في هذا الخضم الذي تلاطمت أمواجه، وفي هذا الفضاء الذي تشابهت أفواجه، محتاج إلى معونة إلهية في تمييز الخير من الشر وقد أمده الله بهذه المعونة من دينه الحق ومحتاج إلى تأييد إلهي يعصمه من الشر ويقيه من الوقوع فيه عن جهالة أو عمد، وقد هداه الله إلى أسبابه ووسائله بما شرع له من المنبهات عند طروق الغفلة، والمبصرات عند عروض الشبهة، والمعوذات المحصنات عند إلمام لمة الشيطان وطواف طائفه، ومن هذه المعوذات عقائد تدفع عن صاحبها الشكوك وهي شر، وحقائق تقي صاحبها الوهم وهو شر، وعبادات تربي مقيمها على الخير وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وأعمال تثبت فاعلها على الحق، وأعمال يمليها القلب العامر بتقوى الله والخوف من مقامه »(48).

ثم ينتقل إلى الحديث عن فضل السورتين فيقول:«... فكان مما شرع الله لنا في كتابه وعلى لسان نبيه التعوذ باللسان من الشر والباطل، وأنزل الله عليه هاتين السورتين وفيهما الاستعاذة بالله من أنواع من الشرور هن أمهات لما عداهن».

أما السورتان فيكفي في فضلهما ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة ابن عامر الجهني قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير خير منهن قط﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1}**﴾ **سورة الفلق- 1** -و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1}**﴾**سورة الناس -1-** (49).

ثم انتقل إلى تسمية السورتين فقال:«فتسمية هاتين السورتين بالمعوذتين تسمية نبوية مأثورة كأسماء جميع سور القرآن... وكفى بما فيهما من أصول العقائد معاذا من الشرك، وهو أصل الشرور كلها، وحديث مسلم هو أصح ما ورد في نزولهما»(50).

-أما عن الحكمة في ختم القرآن بهما فيقول المفسر:«يستطيع ممارس القرآن ومتدبره، ومتلقيه بالذهن المشرق والقريحة الصافية، أن يستخرج من الحكم في هذا الختم بهما أنواعا، ولكن أجلاها وأوضحها أنهما ختم على كنوز القرآن في نفس المؤمن، وتحصين لهذه النعم المنشالة من القرآن عليه أن يكدرها عليه كيد كائد أو حسد حاسد... فكان حقيقا وقد ختم القرآن حفظا أو مدارسة أو تلاوة أن يلتجئ إلى الله طالبا منه الحفظ والتحصين من شر كل كيد وحسد يصيبه على هذا الخير العظيم الذي كمل له، وهذه النعمة الشاملة التي تمت عليه»(51).

ثم يختم هذا التمهيد بالمناسبة بين السورتين وبين سورة الإخلاص فيقول: «أما المناسبة الخاصة بين السورتين وبين سورة الإخلاص، فهي أن سورة الإخلاص قد عرفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتنزيه والتمجيد... فكانت آخر مرحلة يقطعها فكرك من مراحل التوحيد في القرآن هذه السورة المعجزة على قصرها، فكأنها توكيد لما امتلأت به نفسك من معاني التوحيد، وكأنها وصية مودع مشفق بمُهِمٍ يخشى

عليك نسيانه فيَعمد فيها من الكلام إلى ما قلّ ودلّ ولم يملّ.. فأنت وقد آمنت وصدقت وخرجت من سورة الإخلاص متشبعا بمعانيها، ومنها معنى الصمد، تستشعر أن العالم كله عجز وقصور، وأن خيراته مكدرة بالشرور، وأن لا ملجأ إلا ذلك الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، فتجيء المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين ذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد، ولأجل هذه المناسبة والارتباط بين السور الثلاث جمع بينهن (*) في التسمية»(52).

2–ثم انتقل إلى دروس السورة الأولى واكتشاف وحدة الموضوع والخط الرابط بين الموضوعات التي تعرضها سورة الفلق، فبعد أن ذكر الله تعالى الشر على عمومه خصص ثلاثة أنواع من الشر لشدة تعلقها بحياة الإنسان ويجيء أكثره من أخيه الإنسان ورتبها ترتيبا بديعا في جنب البلاغة العربية وهـــي:

- الغاسق إذا وقب.
- النفاثات في العقد.
- الحاسد إذا حسد.

والجامع بين الثلاثة هو اشتراكها في الخفاء، فالغاسق ظلام **تخفى** فيه الشرور، والنفاثات مبني أمرهن على **الإخفاء** تخيلا وإيهاما، والحسد داء **دفين (داخلي خفي)**.

أما نكتة الترتيب فإن الليل ليس من شر في نفسه ولا الشر من عمله وإنما هو ظرف للشرور بخلاف النفاثات والحساد فإن الشر من عملها ومن وصفهما ولاطلاعهما عليه صار ذاتيا لهما والشر الذاتي أمكن من العَرَضِيِّ. كما أن بين الاثنين تفاوتا في ذاتية الشر وقوته وعسر التوقي منه، فالنفاثات وإن كنَّ يخفين أعمالهن، ولكنه مما يمكن ظهوره، بخلاف الحاسد فإنه يخفي شره ويبالغ فيظهر بمظهر الخيّر فشره أشدّ والتوقي منه أعسر. ففي الترتيب ترق من الأخف إلى الأشد(53).

ومن أظهر العبارات على التزامه بأساس المنهج السوري وهو نظرية التناسب يضيف قائلا:«ومن جهة أخرى نجد التناسب ظاهرا بين الثلاثة: الغاسق والنفاثات والحاسد. فإن الجميع ظلام. ظلام الزمن وظلام السحر وظلام الحسد.

3–ثم انتقل إلى تقسيم السورة إلى فقرات وهي الخطوة التحليلية فجعل عنوان كل فقرة آية من آياتها ليتمكن من التحكم فيها وفهمها واستنباط الأحكام والحكم منها.

4–ثم انتقل إلى ربط هذه الأفكار وبيان الهدف الموحد الذي ترمي إليه، هذه الخطوة كانت ضمن عملية التحليل التي قام بها للأفكار الجزئية أو لدروس السورة الجزئية مؤكدا على بيان الروابط المعنوية بين الآيات والرابط العام بين السورتين، وهو ما أدى به إلى الخروج بتصور محدد حول موضوع السورتين قائلا: «والمناسبة بين السورتين يرشد إليها اشتراكها في الوصف وهو التعوذ بهما من الشرور المذكورة فيهما. ففي السورة الأولى استعاذة من شر واحد لكنه سبب في شرور كثيرة»(54).

5-ثم يختم الموضوع بخلاصة هي التصور القرآني حوله، أن هذا النوع الإنساني المهيأ لقابلية الخير وقابلية الشر، إذا انحط وتسفل كان محضا، وإذا ترقى وتعالى شارف أفق الملأ الأعلى، وأوشك أن يكون خيرا محضا لولا أن العصمة لم تكتب إلا لطائفة منه، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

هذه مسيرة الشيخ ابن باديس في تفسيره للمعوذتين متبعا فيه خطوات المنهج السوري التي وضعها المنظرون لا ينقصه في ذلك إلا استخدام المصطلح.

هذا آخر درس له في التفسير وهو من صميم التفسير الموضوعي ألقي ونشر في الشهاب (*) في أواخر الثلاثينيات قبل التنظير لهذا المنهج في أواخر الثمانينيات.

نتائج البحث :

بعد التعريف بجهود الشيخ العلامة المصلح عبد الحميد بن باديس في مجال التفسير الموضوعي واستيفاء البحث في تطبيقاته لمنهج التفسير الموضوعي خلص البحث إلى مجموعة من النتائج أوجزها في هذه النقاط:

1-أن رحلة الشيخ عبد الحميد بن باديس الطويلة مع كتاب الله مفسرا جعلت تجاربه معه متنوعة ومختلفة جاد بها الزمان درى الشيخ باختلافها عن بعضها أم لم يدر.

2-دراسة الشيخ للقرآن الكريم دراسة موضوعية مبكرة، واستيعابه المنهج استيعابا جيدا لا ينقصه في ذلك إلا استخدام المصطلح.

3-تطبيق المفسر لمنحيي التفسير الموضوعي التجميعي والسوري تطبيقا دقيقا دون سابق تنظير منه، اللهم إلا ما يمكن أن يكون قد اطلع عليه :

- ما قام به ابن القيم الجوزية حين خصص فصلا في كتابه "الشفاء العليل" تحت عنوان: «الطبع والختم والقفل والغل والسد والغشاوة والحائل بين الكافر وبين الإيمان»،

- تجربة الشاطبي وتنبهه للوحدة الموضوعية في السورة وتأكيده على ضرورة مراعاة العلاقات والروابط بين آيات السورة الواحدة عند النظر في تفسيرها.

غير أنه لا يمكننا أن نعد ما أنجزه ابن باديس سيرا على طريقتهم حتى وإن كان قد تأثر بهما فتجربته كانت أنضج وأوسع.

4-اختيار ابن باديس موضوع العرب في القرآن ودراسته وفق المنهج الموضوعي المعاصر في تلك الفترة بالذات، مخالفا بذلك المعهود في دروس تفسيره اليومية، تأكيد على مراعاته مقتضى الحال وهو عين السبب الرئيسي في ظهور منهج التفسير الموضوعي. فواقع المجتمع الذي فسر فيه كتاب الله وهو القائل -شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب- يشير أن المفسر انطلق من هذا الواقع مستفتيا القرآن في قضية العروبة متسائلا عن سبب تكرار ذكر العرب في القرآن وعن دورهم في ريادة الأمم.

فالواقع وإيديولوجياته يؤكدان حاجة العرب –وأظنه يقصد شعوب المغرب العربي خاصة والتي كانت تعاني سيطرة الاستعمار وشعوب الأمة العربية عامة– إلى معرفة أمجادهم ودورهم وواجبهم تجاه دينهم وأوطانهم وأممهم أمتهم، فوقف يحاور القرآن ليصل إلى تصور محدد حول مفهوم العروبة ودور العرب في تبليغ الرسالة، قاصدا اصلاح وتغيير ذلك الواقع المزري، مما يبين عمليا توظيفه التفسير الموضوعي في الإصلاح.

5–أما اختياره للمعوذتين نموذجا للدراسة الموضوعية الكشفية، لغرض الوقوف على موضوع السورة القرآنية فأراه أيضا انطلاقا من الواقع خدمة لقضية عقائدية، ذلك لما كان يراه من انتشار البدع والفساد الديني والأخلاقي، فكان تفسيره لهاتين السورتين والجمع بينهما، وصية مودع – وهو يختم تفسير كتاب الله– بضرورة التحصن بهاتين السورتين والابتعاد عن أصل الشر وفروعه ومحاربة البدع.

6–انطلاقا من النتيجة الرابعة والخامسة أرى وجود علاقة وطيدة بين مناهج التفسير الموضوعي والتفسير الشفاهي، وهي نتيجة أساسية توصلت إليها في أطروحة الدكتوراه الموسومة بـــ« **التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث**». كما أرى أن التعريف الذي صغته بتواضع مؤصلة بذلك للون قديم جديد في التعامل مع تفسير كتاب الله مشافهة ينطلق من نفس منطلق التفسير الموضوعي ويهدف إلى تحقيق الأهداف نفسها.

والتعريف يقول:« التفسير الشفاهي لون من ألوان التفسير يعتمد الخطاب المباشر بين المفسر والجمهور، ويقوم على توظيف النص القرآني توظيفا حركيا واقعيا لإصلاح الفرد والمجتمع»[55].

في حين أقترح تعريفا متواضعا للتفسير الموضوعي هذا نصه:

«التفسير الموضوعي منهج مستحدث يحاور الباحث به القرآن حول موضوعات الحياة المختلفة، من خلال سورة أو أكثر حسب المقاصد القرآنية للوقوف على الهدايات القرآنية والخروج بتصور سليم حول الموضوع أو نظرية علمية فيه».

فالناظر في التعريفين يلاحظ تقاربا بينهما لا سيما فيما يتعلق بالمنطلق والهدف وطبيعة الموضوعات المدروسة التي لا تخرج عن الواقع، غير أن الجزء المتعلق بالخطاب المباشر انفرد به تعريف التفسير الشفاهي، رغم أن ابن باديس درس القرآن دراسة موضوعية شملت المنحيين التجميعي والسوري مشافهة، لأن كلا الموضوعين كانا ارتجالا، ثم دونا في تفسيره المجموع، مما يعني –والله أعلم– أن التفسير الموضوعي و الشفاهي متلازمان خاصة في مجال الدعوة مما يعني أن التفسير الموضوعي كما مارسه المنظرون ويمارسه الباحثون المعاصرون كتابة يمكن ممارسته أيضا مشافهة وهو ما يواكب حاجة العصر. مما يجلي الخلاصة العامة في البحث: إمكانية توظيف التفسير الموضوعي في عملية الإصلاح.

هوامش البحث

1- محمد البشير الإبراهيمي أحد زعماء الإصلاح في الجزائر ولد عام 1989م في قرية أولاد ابراهيم قرب مدينة سطيف تعلم على يد والده وعمه وأكمل تعليمه بالحجاز عام 1991م، ثم رجع إلى الجزائر عام 1920م وشارك في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولما توفي ابن باديس انتخب رئيسا لها. أنظر: ترجمته (محمد علي دبوس، نهضة الجزائر الحديثة، المطبعة العربية، الجزائر، 1971، ج2، ص104-122).

2- البشير الإبراهيمي، تصدير لمجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تحقيق، أبو عبد الرحمان محمود، دار الرشيد، الجزائر، ط1، 1430هـ/2009، ص5-6.

3 – محمد محمد السيد عوض، التفسير الموضوعي نماذج رائدة في ضوء القرآن الكريم، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ط2(1426هـ/2005ن)، ص "أ".

4 – أنظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، دار النفائس، د.ط .د. ت، ص14.

5 – البشير الإبراهيمي، تصدير مجالس التذكير، ص6-7.

6-المصدر نفسه، ص7.

7- زياد خليل محمد الدغامين، ملامح التجديد في فكر الأفغاني في التعامل مع القرآن الكريم وأثره في منهج التفسير في العصر الحديث، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد 47، رمضان 1422هـ، ديسمبر 2001، ص21-63.

8- هو مفتي الديار المصرية، توفي سنة 1323 هـ، الأعلام (6/353-253).

9- هو صاحب مجلة المنار، بث فيها آراؤه الإصلاحية له تفسير المنار توفي سنة 1354هـ، الأعلام (6/126).

10-نادية وزناجي، التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث، باتنة، الجزائر، 2008م.

11- أنظر: تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير، تحقيق أبو عبد الرحمان محمود، ص35.

12- عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج1، ص71.

13- الشيخ المداسي، هو:الذي حفظ ابن باديس القرآن على يده بمدينة قسنطينة وهو أول معلم له.

14- الشيخ حمدان الونيسي هو: الأستاذ الذي تلقى عنه دراسته الابتدائية والثقافة الإسلامية، بقسطنية، ولقد وصاه أن يقرأ العلم للعلم، لا للوظيف ولا للرغيف.

15– الشيخ محمد النخلي هو: أستاذه بجامع الزيتونة وزعيم النهضة الفكرية به.

16– الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ولد بتونس سنة 1879 وتقلد عدة مناصب علمية أهمها : مشيخة جامع الزيتونة.

17– الشيخ حسين أحمد الهندي هو: أحد شيوخه بالمدينة المنورة وهو من أشار عليه بالعودة إلى وطنه لخدمته.

18– أنظر: البشير الإبراهيمي، تصدير مجالس التذكير، ج1، ص37–38.

19– المصدر نفسه، ص15.

20– نفسه، ص 15.

21– نفسه، ص 15.

22– 23–24– نفسه.

25– المصدر نفسه، ص474.

26– المصدر نفسه، ص476.

27– حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد ابن باديس مفسرا، ص63.

28–أنظر: أبو عبد الرحمان محمود، مقدمة تفسير ابن باديس، ج1، ص51.

29– أنظر: مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم دمشق، ط 5، 1438هـ– 2007م، ص37–39.

30– أحمد عثمان رحماني، مصادر التفسير الموضوعي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1(1419هـ–1998)، ص 26.

31– باديس، مجالس التذكير، ج1، ص359.

32– نفسه.

33– أنظر: أحمد عثمان رحماني، مصادر التفسير الموضوعي، ص 27.

34– مباحث في التفسير الموضوعي، ص37.

35– أنظر: أحمد عثمان رحماني: المصدر السابق، ص30–31 (بتصرف يسير).

36– أنظر: ابن باديس، مجالس التذكير، ج1، ص55–66.

37– المصدر نفسه، ج1، ص55.

38–39–40– نفسه.

41–المصدر نفسه، ج2، ص396.

42–المصدر نفسه، ج2، ص399.

43–المصدر نفسه، ص400.

*– أنظر: سورة سبأ/14–18.

44–45– ابن باديس، المصدر السابق، ج2، ص400.

*– مصطلح "التفسير الموضوعي الكشفي": هو ما أطلقه أحد الباحثين في الجزائر (الأستاذ الدكتور أحمد عثمان رحماني على منهج "التفسير الموضوعي السوري" وهو مصطلح انفرد به عن بقية الباحثين في هذا المجال).

* – هذا الدرس هو آخر ما ارتجله ابن باديس من دروس تفسيره الشفاهي، يوم حفل ختم التفسير وهو الدرس الوحيد الذي دوّن مباشرة أثناء إلقائه بقلم زميله ورفيق دربه في الإصلاح الشيخ البشير الإبراهيمي.

46– أنظر هذه الخطوات في: مباحث في التفسير الموضوعي، ص40.

47– ابن باديس، مجالس التذكر، ج2، ص339–340.

48– أخرجه مسلم: (814) عن عقبة بن عامر مرفوعا بلفظ "مثلهن" مكان "خير منهن"، والرواية الأخرى له (814)(285).

49– ابن باديس، المصدر السابق، ص340–341.

50– المصدر نفسه، ص343–344.

51– ابن باديس، المصدر السابق، ج2، ص345.

* – كما جمع بينهن في التسمية والتعوذ، جمع بينهن عمليا في قراءة الوتر / ثبت ذلك في حديث عائشة/ رواه ابن حبان (275 و282 موارد الضمان)، والحاكم (305/1) وقال :«صحيح على شرط الشيخين) ووافقه الذهبي.

52– ابن باديس، المصدر نفسه، ج2، ص353–354.

53–54– ابن باديس، المصدر نفسه، ج2، ص376.

* – قال الشيخ البشير الإبراهيمي: «انتهى تلخيص الدرس، وقد حرصنا على ما وعته الذاكرة من معانيه، وقيده القلم من ألفاظه، ثم تصرفنا في المواضيع التي طرحها الأستاذ بما لا يخرج عن مراده ولا يخل بطريقته في تفسير كلام الله، والله ينفعنا بالقرآن ويوفقنا إلى خدمته» الشهاب/ج 4 و5م 14 ربيع الثاني وجمادى الأولى 1357 هـ/ جوان وجويلية 1939م.

55– نادية وزناجي، التفسير الشفاهي وأثره في الإصلاح الحديث، تمهيد: مفاهيم مصطلحات عنوان البحث، ص21.